

(نيتشه كمؤسس للاعقلانية في طور الامبريالية)

(Nietzsche comme le fondateur de l'irrationalisme de la période impérialiste)**عكاك اسماعيل**¹ جامعة الجزائر 2. (الجزائر)، akkak.ismail44@gmail.

تاريخ النشر: 2019/04/16

تاريخ القبول: 2019/03/13

تاريخ الاستلام: 2019/01/05

ملخص:

إن مقالنا هذا الذي يحمل عنوان " نيتشه كمؤسس للاعقلانية في طور الامبريالية" يرتكز على ثلاثة نقاط رئيسية:1- في نظر لوكاتش، هناك مرحلتين مرت بهما اللاعقلانية الحديثة: فالمرحلة الأولى تجلت من خلال المعركة ضد التصور التاريخي- الجدلي للتقدم، وهذا ما رسمه المسار الذي امتد من شيلنج إلى كيركغارد مروراً بـ (شوبنهاور). أما المرحلة الثانية من اللاعقلانية فقد كان نيتشه هو ممثلها الرئيسي.

2- إن نيتشه يعتبر، حسب لوكاتش، بمثابة "مؤسس اللاعقلانية في المرحلة الامبريالية". بحيث تركز بحث لوكاتش على البرهنة في كون أن فكر نيتشه قد وُجّه منذ بدايته ضد الديمقراطية والاشتراكية. إن كتاب تحطيم العقل قد قدم نيتشه على أساس انه بمثابة استباق ميثولوجي للفاشية الهتلرية. إن لوكاتش قد كسّر ذلك الطابو الغربي حول نيتشه، وبرهن على الكيفية التي من خلالها تم ابتذال أفكاره وتوظيفها من طرف هتلر وروزنبرغ بغرض الوصول إلى أهدافهما. 3- إن اللاعقلانية ليست ظاهرة مميزة لألمانيا فقط، ولكنها ظاهرة دولية. الواقعة الوحيدة المميزة هي انه في ألمانيا، اللاعقلانية ستصبح إيديولوجية للقوى السياسية الأكثر رجعية، وهذا ما لم يحدث في بقية الدول الأخرى.

كلمات مفتاحية: اللاعقلانية...نيتشه. الفاشية الهتلرية..الامبريالية...لوكاتش...

Abstract:

Notre article intitulé « **Nietzsche comme le fondateur de l'irrationalisme de la période impériale** » est axé sur trois points essentiels:

1-Selon Lukacs, il y a deux périodes dans l'irrationalisme moderne: la première consiste dans le combat contre le concept historico-dialectique du progrès, c'est la voie de Schelling à Kierkegaard en passant par Schopenhauer. La deuxième période est représentée par Nietzsche. 2-Lukacs apparaît chez Nietzsche le fondateur de l'irrationalisme de la période impériale. Lukacs cherche à montrer que la pensée de Nietzsche a été orientée dès son commencement contre la démocratie et le socialisme. Son œuvre (La destruction de la raison) est présentée comme une anticipation mythologisante du fascisme hitlérien. Lukacs brise ainsi le tabou occidental de Nietzsche et montre comment Hitler et Rosenberg vulgarisé les idées de Nietzsche et les utilisées pour atteindre leurs buts. 3- L'irrationalisme n'est du tout un phénomène spécifiquement allemand, mais un phénomène international. Le seul fait spécifique est qu'en Allemagne l'irrationalisme est devenu l'idéologie des forces politiques les plus réactionnaires, ce qui n'a pas été le cas dans les autres pays.

Keywords: L'irrationalisme ; Nietzsche; Le fascisme hitlérien ; l'impérialisme; Lukacs.

المؤلف المرسل: عكاك اسماعيل،

1. مقدمة:

إن المرحلة التاريخية التي تزامنت مع نهاية القرن التاسع عشر، قد شهدت عودة التيارات اللاعقلانية، وبصورة أكبر من تلك التي كانت قبل عصر التنوير. هذه التيارات الفلسفية التي بدأت ملامحها الأولى في البروز من خلال معركتي كيركغارد- هيجل، وهيجل- شيلنج، إلى غاية الفلسفة المعاصرة التي اكتشفت أخطاء العقل الذي لعب في النهاية الدور القديم الذي كان يلعبه الإيمان، أعني الجمود والصورية ونسيان الفردي والجزئي والواقع كله. كما ظهرت في تلك المرحلة في كتابات العديد من الفلاسفة مثل برجسون، نيتشه، هوسرل، شبنجلر...الخ، الفكرة القائلة بأن الشعور الأوروبي قد وصل إلى نهايته، فقد اكتملت المثالية الألمانية على يد هوسرل، وانتهى الصراع التقليدي بين المثالية والواقعية على يد برجسون، وانتهى كل شيء على يد نيتشه

ولم تبق إلا العدمية. كما حاول البعض المناداة بإحياء الحضارة الغربية عن طريق الروح والإيمان على غرار برجسون، ياسبرز، غابريال مارسل، و نيكولا برديايف... الخ.

ولكن هذا التنامي الكبير للتيارات اللاعقلانية، ومحاولة العديد من الفلاسفة تبرير الحملة على العقل من خلال اعتبارها مظهرًا من مظاهر التحرر الفكري، أو من خلال ربط ظهور هذه التيارات اللاعقلانية سواء بأزمة العقل أو بأزمة العصر، فإن كل هذه القراءات والتأويلات لطبيعة اللاعقلانية قد بدّت عند البعض الآخر من الفلاسفة غير مبرّرة تماما، خاصة وأن الهجوم على العقل بهذا الشكل الرهيب قد برز في مرحلة تاريخية وفلسفية لم تفصلها سوى أقل من قرن أين كان العقل فيها، من قبل، بمثابة الإله، بل إن كفاح الحضارة الغربية الحديثة ضد الخرافة والوهم واللامعقول لم يكن يهدف إلا لجعل الحياة تقوم في كل أنشطتها على العقل وحده.

وحسب هؤلاء الفلاسفة، وعلى رأسهم المنظر والفيلسوف الماركسي (جورج لوكاتش) G.Lukacs (1885-1971)، فإن ذلك الطرح الذي ربط ظهور التيارات اللاعقلانية بأزمة العقل أو بأزمة العصر، لم يحمل في طياته التبرير الكافي، وذلك بسبب إهمال ممثلي هذا الطرح لأحد أهم العوامل التي ساهمت سابقا ولاحقا في تحديد مسار الأفكار والإيديولوجيات، ونعني به العامل الاقتصادي. ذلك أن العقل هو قبل كل شيء سلاح البورجوازية الناهضة التي ورثت المجتمع الإقطاعي، وحوّلت ثرواته إليها. ولهذا قيل بأن العقل قد ارتبط بصعود البورجوازية، هذه الأخيرة التي وجدت في فلاسفة العقل بمثابة الممثل الشرعي لايدولوجيتها، خاصة وأن هؤلاء الفلاسفة قد ارتكزوا في نظرياتهم الفلسفية على أفكار تمجّد العقل والحرية والفردية. وهذا ما ينطبق على الثورة الفرنسية من حيث هي ثورة بورجوازية قامت ضد الإقطاع القديم، بحيث لم تعبّر هذه الثورة إلا عن انتصار العقل آنذاك. فكل هذا من شأنه أن يؤكد مشروعية هذه الأطروحة اللوكاتشية الأصلية.

إن اللاعقلانية هي مثابة أزمة البورجوازية فلسفة ونظاما. كما أن الظاهرة الهتلرية لم تنبثق من العدم، وإنما هي نتيجة تطور سلبي طويل ميّز التاريخ السياسي والفلسفي الألماني، وقد

شكلت التيارات الفلسفية اللاعقلانية حلقة مهمة في هذا التطور السلبي. إذن فقد ساهمت اللاعقلانية في انبثاق الظاهرة الهتلرية في ألمانيا.

وكل هذا سيدفعنا إلى طرح الإشكالية الآتية: كيف ساهمت فلسفة نيتشه اللاعقلانية في الترويج للإيديولوجية النازية في ألمانيا فقط دون غيرها من الدول الأخرى؟

2. اللاعقلانية في طور انحدار الإيديولوجية البورجوازية

1.2 السياق التاريخي لانحدار الإيديولوجية البورجوازية

من الواضح جليا أن اللاعقلانية قد كانت بمثابة المهمة الإيديولوجية للتيارات الأشد رجعية في ألمانيا، "الثلاثي: شوبنهاور، كيركغارد، نيتشه، كانوا يملكون مواهب فلسفية كبيرة، مثلا قدرة تجريد عالية، وليست فقط قدرة تجريد شكلي، حسنا كان يتيح لهم أن يفهموا ظاهرات الحياة، أن يربطوا بواسطة الفكر الحياة المحسنة مباشرة، وبالتجريد. وقد استطاعوا أن يدركوا الأهمية الفلسفية لبعض الظواهر التي لم تكن موجودة في زمنهم إلا في شكل خط صغير أو بداية اتجاه، ولم تكن إلا ذلك بكثير الأعراض العامة للحقبة. ولكن صحيحا أيضا، وهذا ما يميزهم عن الفلاسفة الكبار أن تيار الحياة الكبير قد اسلموا له فكرهم، والذي رسموا سلفا خطوط قوته، ما هو إلا صعود الرجعية البورجوازية. أحسوه يجيء ويكبر، حزرُوا بذلك مدهش ماذا ستكون خصائصه، وظهروا هنا ضربا من رؤية فلسفية، من رؤية عرّاف فلسفية، من قدرة نبوية في التجريد". (لوكاتش، 1982، ص10)

لقد كانت نهاية ثورة 1848 بمثابة الإعلان عن انحدار الإيديولوجية البورجوازية، بدليل أن الحقبة الممتدة من 1848-1870 عرفت العديد من الوجوه الانتقالية التي شكلت أعمالهم الإبداعية وجها من أوجه الانحطاط، خاصة في الأدب والفن. وهذا ما تجلى بالخصوص من خلال (فلوبير)، و(بودلير).

وإذا كان تأثير الأدب البورجوازي في رسم ملامح هذا الانحطاط لم يتعد أن يكون سوى تأثيرا محدودا، فإن العكس تماما ينطبق على كل من الاقتصاد البورجوازي والفلسفة البورجوازية. بحيث أن تأثيرهما كان كبيرا في تحديد المعالم الأولى لانحدار الإيديولوجية

البورجوازية. فالاقتصاد البورجوازي كان مصيره الانحدار مع تفكك مدرسة ريكاردو، خلال سنوات 1820. أما الفلسفة البورجوازية فقد كان مصيرها ذاته مع انحلال الهيكلية، خلال سنوات 1830 و1840. أي أننا أمام غياب لكل ما هو أصيل في الفكر الاقتصادي والفلسفي، بحيث لم ينتج أي شيء أصيل ولا أي شيء موجه نحو المستقبل.

وبخصوص التطور الإيديولوجي السائد آنذاك، فيمكننا الإشارة كذلك إلى نتائج أخرى كانت قد تمخضت عن الوقائع السابقة. ولعل أبرزها هو تحقق الوحدة القومية في عدة دول من أوروبا الوسطى، بالإضافة إلى تحقق العديد من مطالب الثورات البورجوازية. لكن عدم زوال بقايا الحكم الإقطاعي في عدة دول أوروبية، على غرار ألمانيا وإيطاليا، جعل الطرح القائل بضرورة تصفية هذه البقايا عن طريق ثورة تقودها البروليتاريا هو الرأي السائد. وهذا ما تجسد من خلال ثورات 1848 و1871 التي امتد تأثيرها ليشمل معظم أرجاء أوروبا، خاصة في ظل تعزّز الرابطة بين البورجوازية والطبقات الرجعية، مما أدى إلى احتدام شدة الصراع الطبقي. وكل هذا وقع بعد تأسيس الأمم المتحدة الأولى عام 1864، ونجاح البروليتاريا في الوصول إلى الحكم عام 1871.

إن كومونة باريس 1871 أدت إلى تحول جذري في وجهة المناقشات الرجعية. بحيث هدفت الفلسفة البورجوازية إلى البحث عن كيفية مثلى لنزع سلاح الاشتراكية. خاصة وأن هذه الأخيرة قد تسلحت ضمن قالب نظري واضح، رغم محاول تجاهل ذلك من طرف البورجوازيين، إلا أنه أصبح من المستحيل المرور بصمت على الماركسية. وكل هذا حتمّ على البورجوازية القيام بدور دفاعي ضدها، مما يفسر لجوئها إلى إيديولوجية تقوم على محاولات عدّة لتشويه الماركسية. فبحكم وجود الخصم، اضطرت البورجوازية الرجعية إلى صياغة قوالب نظرية ومنهجية لمواجهة هذا الخطر الذي يهدد كيائها، بدليل تعدّد الأساليب والمناورات البورجوازية ضد كل ماله علاقة بالمادية التاريخية والجدلية .

2.2 السياق التاريخي والفلسفي للاعقلانية نيتشه

مع نيتشه نحن فقط مع المرحلة الأولية في هذا التطور. ولكن منذ هذه المرحلة نستطيع ملاحظة وجود بعض التيارات الهامة. قوامها في هذا، وهو أن لاعقلاني الحقبة السابقة، مثل شيلنج أو كيركغارد، كان لا يزال بوسعهم، في مساجلتهم ضد جدل هيغل المثالي، أن يضعوا أحيانا أصبعهم على عيوبه الفعلية. بالتأكيد لم يكونوا يستخلصون من هذه الانتقادات، الصائبة أحيانا، سوى نتائج كلها مندارة نحورجوع إلى الماضي (...) ولكن الحالة صارت غير ذلك تماما حين باتت القضية هي الكفاح في المقام الأول ضد المادية الجدلية والتاريخية. في هذه اللحظة تجد الفلسفة البورجوازية نفسها خارج وضعية القيام بنقد حقيقي، إنها لا تستطيع حتى أن تفهم بشكل صحيح موضوع مجادلتها. وليس لها أن تختار الى بين وسيلتين: إما المجادلة ضد الجدل، وضد كل نوع من مادية (...) وإما اللجوء إلى ديماغوجية تضع في معارضة الجدل الحق جدلا- زائفا. (لوكاتش، 1982، ص ص 95-96)

فمن الواضح جليا أن النقد اللاعقلاني الذي وجّه ضد الجدل قد التزم سابقا بقدر من الموضوعية، نظرا لقيامه على معرفة صحيحة بالفلسفة الهيجلية. وهنا نقصد كل من شيلنج، كيركغارد، و(تراندلبرغ) F.A.Trendelenburg (1802-1872). إن فلسفة البورجوازية قد غابت عنهم أية معرفة حول المنهجية الجدلية أو الفلسفة المادية، مما أدى إلى زوال تلك المناقشات الجديّة والموضوعية التي صادفناها عند خصوم الجدل الهيجلي. ف (شوبنهاور) مثلا، يعتبر بمثابة رائد للانحطاط البورجوازي، بدليل نقده لهيغل حتى من دون أية معرفة سطحية عنه.

على ضوء ذلك، كيف يمكننا ذكر بأنّ كل عمل نيتشه يمثل، على امتداد حياته، مجادلة لا تنقطع ضد الماركسية والاشتراكية، مع انه وضوحا لم يقرأ في يوم من الأيام سطورا واحدا من ماركس و انجلز؟. (لوكاتش، 1982، ص 96)

هكذا الأمر مع نيتشه، منذ نيتشه، وكلما ظهر الخصم الجديد أكثر تصميمًا – بخاصة منذ ثورة 1917- تلاشت بأمانة اكبر وقوة فتح معركة صادقة ضد العدو الواقعي والمعرّف جديا تستخدم أسلحة علمية، ومالت التشويهات والافتراءات و الديماغوجيا إلى الحلول محل مجادلة

علمية شريفة. هذه الحقيقة أيضا هي الانعكاس الواضح لصراع طبقات قد أصبح أكثر حدة. ما كان ماركس يسجله بعد ثورة 48: "قدرات البورجوازية آخذة في الرحيل"، يتثبت بوضوح اكبر درجة بدرجة. ليس هذا صحيحا فقط بالنسبة للمناظرة المذكورة بل أيضا في كل بنية وفي إنضاج كل الفلسفات اللاعقلانية. (لوكاتش، 1982، ص 14)

إن نيتشه يعتبر، حسب لوكاتش، بمثابة "مؤسس اللاعقلانية في المرحلة الامبريالية". بحيث تركز بحث لوكاتش على البرهنة في كون أن فكر نيتشه قد وُجّه منذ بدايته ضد الديمقراطية والاشتراكية. إن كتاب تحطيم العقل قد قدم نيتشه على أساس انه بمثابة استباق ميثولوجي للفاشية الهتلرية. إن لوكاتش قد كسّر ذلك الطابو الغربي حول نيتشه، وبرهن على الكيفية التي من خلالها تم ابتذال أفكاره وتوظيفها من طرف هتلر وروزنبرغ بغرض الوصول إلى أهدافهما. (Bahr, 1972, pp79-80) ومن خلال هذا المنطلق، "فإن لوكاتش يرى في نيتشه بمثابة المسعى المنهجي واليقيني(...) الذي هدف الى إدخال اللاعقلانية في الفلسفة. كما أنه يعتبر بمثابة المصدر الأولي لتلك التعقيدات اللاحقة التي ميّزت الفكر اللاعقلاني خلال الفترة الممتدة من برجسون الى هيدجر. ولذلك فإن الجزء الأكبر من مؤلف تحطيم العقل قد كُرس لنقد شامل ومنصف لـنيتشه". (Stanley, 2001, p57)

إن موقف نيتشه من مختلف قضايا عصره، يمكننا فهمه وتفسيره إذا عرفنا السياق التاريخي الذي برز فيه، بالإضافة إلى مواهبه الشخصية الخارجة عن المؤلف التي كان يتمتع بها. إن نشاطه الفكري عشية الطور الامبريالي. أي انه عايش الصراعات التي حدثت في عهد بسمارك، بالإضافة إلى تأسيس الرايخ الألماني. إضافة إلى انه شهد فترة سقوط بسمارك، وإعلان عن السياسة العدوانية من طرف فيلهلم الثاني. وفي الوقت نفسه، فقد شهد كومونة باريس 1871، والتي تمخضت عنها بداية تأسيس الأحزاب الاشتراكية، وكل ما رافق ذلك من قوانين مضطهدة ضد هذه الأحزاب. "إلا انه لم يعيش المرحلة الامبريالية. وهذا ما يصنع مزية وضعه: استطاع أن يضعها وان يحلها في شكل أسطوري. هذا الشكل الأسطوري سهّل النفوذ الذي مارسه. ليس فقط لأنه كان أكثر فأكثر هو الطريقة المفضلة عند فلاسفة الطور الامبريالي،

بل أيضا لأنه أتاح لنيته أن يطرح العضلات الثقافية والأخلاقية في حدود عمومية بحيث إن نيته، رغم تغيرات الحالة والتغيرات الخططية التي أجرتها البورجوازية، استطاع أن يبقى هو أول هؤلاء الفلاسفة. كان أولهم قبل الحرب العالمية الأولى وظل أولهم بعد الثانية". (لوكاتش، 1982، ص 97)

3. الحلول التي قدمها نيته لمشاكل البورجوازية الرجعية

1.3 الأسباب الذاتية والموضوعية لتزعم نيته فلاسفة الامبريالية

هذا النفوذ الدائم الذي عرفنا الآن إمكانيته الموضوعية ما كان يمكن أن يوجد أبدا لو لم يكن نيته مفكرا أصيلا وموهوبا بشكل مرموق. انه يملك قدرة استباق دقيقة خاصة، ولقد كان بالغ التحسس بالمشكلات التي تغدّى بها العالم الفكري الطفيلي للعصر الامبريالي (...) وقد استطاع أيضا أن يحيط بقطاعات واسعة من الثقافة، وان ينير مسائلها المثيرة بحكم مقتضبة (aphorismes) ذكية. استطاع أن يعطي هذا الفريق من الطفيليين المثقفين الذين كانت تخضعهم غرائز التمرد، أو يخضعهم ببساطة بعض الاستياء، رضى بعض المواقف ذات المظهر الفائق- الثورية التي كانت تسحرهم، بينما في الوقت نفسه كان يعطي عن جميع هذه المسائل أجوبة، أو على الأقل كان يشير الى أجوبة". (لوكاتش، 1982، ص 98) وكل هذا مكّن من بداية ظهور تلك الشعارات البراقة التي تعتقد بها الطبقة الرجعية للبورجوازية الامبريالية.

وإذا كانت مهمة نيته الأساسية قد تمثلت في حدى حلول للمشاكل التي ستواجه البورجوازية الرجعية، في شكل ميثولوجي، فإن ذلك لم يمنعه من الاهتمام بمشاكل اجتماعية وأخلاقية أخرى كانت قد واجهت البورجوازية. ولعل أبرزها على الإطلاق تبرز جليا مشكلة الانحطاط. هذه الأخيرة التي ارتبط بروتها مع الاستياء العميق اتجاه الثقافة المعاصرة: أي ما يُعرف بالقلق الذي كان سائدا حول موضوع الثقافة، وضرورة الثورة التي تنتج عن ذلك، على حد تعبير فرويد، رغم استحالة ذلك، لأن الثائر الطفيلي غير مستعد للتخلي عن امتيازاته الشخصية، ومراجعة سلم الطبقات الاجتماعية. فإذا كانت الفلسفات التقدمية قد أدانت أعراض الانحطاط الذي ميّز العصر، فإن المثقفين الطفيليين -باستثناء نيته- قد كرسوا

إيديولوجية رجعية تقوم على التشبث بوهم الحياة والدفاع عن الوضع القائم، وهذا ما جعلهم ما بين النرجسية والتشاؤم.

إن السبب الرئيسي الذي جعل نيتشه يتزعم فلاسفة الامبريالية، بالإضافة الى استخدامه للأساطير، فيكمن في انه لم يع الانحطاط الذي كان الظاهرة الأساسية لبورجوازية زمنه فحسب، بل لقد عمل بنجاح على جعل الانحطاط يتجاوز نفسه. وبالفعل، فقد لبّت فلسفة نيتشه حينها المطلب الاجتماعي الذي تمثل في البحث، في قلب الانحطاط، عن بذور خصبة لتجديد للبشرية. ساعده في ذلك موهبته ككاتب شذرات لاذعة، كمبدع أساطير. وهذا ما عبر عنه لوكاتش بقوله: "مع تحليله السيكلولوجي للحضارة، وأفكاره الجمالية والخلقية، نيتشه هو الأرجح الممثل الأكثر موهبة وذكاء والأغنى بالألوان الدقيقة لهذا الأخذ لوعي الانحطاط. ولكن أهميته لا تنحصر في هذا. إذ تعرّف على أن الانحطاط هو الظاهرة الأساسية في التاريخ البورجوازي لزمه، شرع يبحث عن السبل التي يستطيع بها الانحطاط أن يتجاوز نفسه". (لوكاتش، 1982، ص99)

وكل هذا جعل من نيتشه بمثابة مصدر إغراء للعديد من المثقفين، والذي امتد ليشمل حتى المفكرين التقدميين أمثال توماس مان، جورج برنارشو، وهذا بعد أن كان مقتصرًا سابقًا، على المثقفين الرجعيين فقط.

بالتأكيد، إن نيتشه قد اتخذت فلسفته شكلا أسطوريا، وهذا وحده مكّنه من فهم وتحديد الاتجاهات السائدة، نظرا لافتقاره لأي فهم عن الاقتصاد الرأسمالي، بحيث كان وحده القادر على رصد، ووصف، والتعبير عن أعراض البنية الفوقية. ولكن هذا الشكل الأسطوري ينتج من حقيقة أن نيتشه، الفيلسوف الرائد للرجعية البورجوازية، لم يعيش ليرى الامبريالية. بالضبط مثل شوبنهاور من حيث هو فيلسوف البورجوازيين الرجعيين بعد 1848، كتب في العصر الذي تمت فيه تغذية البذور الأولى لما كان سيأتي". (لوكاتش، 1982، ص101)

إن هذا الاستباق الفكري لا يمكن أن يكون متاحا لكل المثقفين والفلاسفة، لأنه ميزة أو موهبة لا يستهان بها، الملاحظة، الإحساس بإشكالية، والقدرة على التجريد. وأن كان شوبنهاور

قد تميز بهذه الصفات كذلك. لذلك فإن محاولة فصل نيتشه عن لاعقلانية شوبنهاور و ربط هذا الأخير بالتنوير وب(هجل)، تعتبر بمثابة محاولة غير بريئة وتخدم أهداف البورجوازية الرجعية. وهذا يعتبر دليلا على المستوى الفكري المتدني الذي بلغته البورجوازية الرجعية. لان الاختلاف بينهما لا يتعدى أن يكون اختلافا في أساليب مكافحة التقدم الاجتماعي. فإذا كان شوبنهاور قد أدان جميع الأفعال العملية الأقل شأنا، سواء كانت أخلاقية أو فكرية، فإن نيتشه قد ارتكزت فلسفته على الفعل والمشاركة الفعالة، مما ألزمه باستبعاد ثنائية شوبنهاور المتمثلة في الإرادة والتمثل، وحل محل الاسطورة البوذية للإرادة، أسطورة جديدة أطلق عليها اسم إرادة القوة. وأن كان تصور نيتشه للتاريخ لا يختلف عن تصور شوبنهاور الذي اخرج الفعل التاريخي من حيّز فلسفته اللاعقلانية، لكن دفاع نيتشه عن الامبريالية ألزمه بتبني الطرح الميثولوجي عن التاريخ.

كما ولا تخلو فلسفة الامبريالية من بناءات طوباوية ترمي الى إحداث تغيرات في الثقافة ولو أدى ذلك الى اللجوء الى الوسائل الثورية، وأوضح مثال على ذلك فلسفة نيتشه، ولكن مع تحريم المس بال قاعدة الاجتماعية والاقتصادية تحريما لا يمكن تجاوزه. وان نيتشه ينتقد بشدة التجليات الثقافية لتقسيم العمل الرأسمالي بدون أن يستهدف أي تغيير مهما كان صغيرا في النظام الاجتماعي. إنها فكرة التقدم التي تستقطب النقد الفلسفي، وهذا النقد لا يفتقر الى دفعة شبه ثورية. وبالطبع، ما من احد يفكر بالقول - وهذا ما يجله الفيلسوف وجمهوره المثقف في معظم الحالات على السواء- أن هذا الطرح الجريء للمشكلة ليس إلا انعكاسا إيديولوجيا لتطور البورجوازية. وهو تطور يضعهما في صف المعارضة للتقدم. إنما المسألة بكل بساطة هي الانعكاس العقائدي للتسوية الحاصلة بين البورجوازية وقوى المجتمع الرجعية. (لوكاتش، ب.ت، ص ص 24-25)

وعلى العموم، فان نقد نيتشه للرأسمالية لم يتعد أن يكون سوى نزعة يمينية مضادة فقط، والتي يمكن إدراجها ضمن النقد الرومانسي للرأسمالية. هذا النقد الذي ظهرت بوادره الأولى، سابقا، مع (كارليل).

في فلسفة نيتشه، المحتوى والطريقة هما على ارتباط وثيق بشكل التعبير الأدبي، الذي هو الـ"أفوريسم" (Les aphorismes)، أي "الشذرات"، الحكمة المقتضبة. هذا الشكل الأدبي سمح بالتغيرات أو التلونات التي خاضع لها النفوذ الطويل الذي مارسه نيتشه. حين، كما عشية الهتلرية، أو الآن بعد سقوط هتلر، غدا من الضروري اجتماعيا إجراء تأويل جديد، فإن المراجعة وتعديل المحتوى الدائم لفلسفة نيتشه ليس لهما الصعوبات التي تصادف مع مفكرين عرضوا تصورهم عن العالم في شكل منظومي (...). بيذا أن المهمة سهلة سهولة خاصة مع نيتشه: حسب حاجات اللحظة، توضع في الصدارة وتُجمع على نحو مغاير هذه أو تلك من حكمة مقتضبة. (لوكاتش، 1982، ص102)

إن لوكاتش يقوم بدراسة وتحليل لهذا الأسلوب الأدبي، بحيث يعتبره مجرد حيلة لجأ إليها نيتشه. فهدف من حلالها الى إخفاء الطابع الرجعي لفكره. إن هذا الأسلوب يحاول تقديم تصورات حدسية واستباقية للمرحلة الامبريالية اللاحقة، من دون أن يكون نيتشه ملزما بتقديم تفسير واضح لإمكانية تحقق هذه الحدوس. انه الأسلوب الذي يُراد من واضعه أن يظهر في صورة الفيلسوف الذي لا يريد يُفهم شيئا، ولكنه، بالأحرى، يدفع قراءه الى فهم ما يكتبه بأنفسهم.

2.3 لاعقلانية نيتشه كإيديولوجية للتيارات السياسية المتطرفة

إن هناك أدلة كثيرة تبين أن نيتشه كان في شبابه وطنيا بروسيا متحمسا (...). بل إن هذا التعاطف يؤلف أحد العوامل المحددة لفلسفة شبابه. يقينا ليس صدفة ولا نتيجة فورة شباب بسيطة لأنه أراد، بأي ثمن، المشاركة في حرب 1870-1871. (لوكاتش، 1982، ص105) بحيث لما اندلعت الحرب الألمانية-الفرنسية (...) تقدم نيتشه بطلب إجازة الى جامعة بازل، حيث كان يشغل كرسي الحضارة اليونانية، ليلتحق بالجيش الألماني "جنديا أو ممرضا" (هكذا جاء في طلبه) فلبّي طلبه وشارك في الحرب ممرضًا يجمع جثث القتلى ويعتني بالجرحى لكنه أصيب بمرض منعه من متابعة عمله فسرح الى جامعته بعد ثلاثة أشهر من التحاقه بالجيش. (هنا، 2007، ص

ومنذ حرب 1870 سيشرع نيتشه بأن الشكل الأعلى والأقوى لإرادة الحياة ليس في الصراع من أجل الوجود، بل في إرادة القتال، في إرادة القوة والهيمنة. وسينطلق في شعوره ذلك من الجندي البروسي، حيث الإرغام والجدية والانضباط حتى في الشكل. وحسب لوكاتش، فإن نيتشه هو، وقبل كل شيء، الجندي البروسي الذي شارك في حرب 1870-71، وبقي طوال مساره الفلسفي وفيما للروح البروسية.

إن نيتشه لا يغش، لا يفترى، ولا يخفي مبادئ اللامساواة ومعاداة الديمقراطية التي تطغى على الطابع العام لمشروعه الفلسفي والحضاري. فقد قالها بكل جرأة بأن النخبة لها كل الحقوق على الضعفاء. ففي عصر أصبحت فيه الأخلاق بمثابة الفضيحة التي تحاول البورجوازية إخفاءها بكل الطرق، فإن ذلك سيجعل من نيتشه بمثابة المفكر البورجوازي الأول الذي تجرأ على الإعلان بأن الأخلاق هي علامة من علامات انحطاط. وهذا ما عبر عنه لوكاتش بقوله: "إن سقراط يظهر هنا كرجل انحطاط والأخلاق نفسها كقرينة انحطاط. وإذا بنيتشه يعلن أنه قام هنا باكتشاف يمثل تجديدا من الدرجة الأولى في تاريخ البشرية." (لوكاتش، 1982، ص110)

ولذلك فإن نيتشه لن يتوقف بعد ذلك عن إبداع أساطير الامبريالية، هذه الأساطير الخلاصية، والتي هي بالدرجة الأولى خلاصة للثقافة التي لا يمكنها أن توجد إلا في مجتمع ينقسم إلى طبقة الذين يشتغلون وطبقة من يملكون فراغا وراحة لإنتاج الثقافة. وعلى هذا، فإن الديمقراطية كما يرى نيتشه تمثل الشكل التاريخي لانحدار الدولة، والرجل الديمقراطي هو رجل بليد، وتاليا لابد من القطيعة مع مبدأ التمثيل الشعبي والعمل على إيجاد دولة المصالح الكبرى، الدولة الفاشية.

على أي حال، إن نيتشه يتنبأ، منذ انهيار أوهايم الديمقراطية، بمجيء عصر حروب كبيرة، وثورات، وثورات مضادة. بعد هذا الاختلاط، سنرى نشأة مثله الأعلى: سيطرة أسياد الأرض سيطرة مطلقة على قطع مطيع تماما، على عبيد دجنوا. (لوكاتش، 1982، ص117)

فالحضارة المعاصرة بحاجة الى متوحشين جدد وأسياد المستقبل الذين يقودون طبقة العبيد التي يناسبها الخوف فقط.

وقد عبّر (كرين برينتون) Crane Brinton (1898-1998) عن هذه النزعة العرقية والارستقراطية بقوله: "إن جانبا كبيرا من وجهة النظر التي نسميها هنا نزعة العداء للعقل تمثلت منذ نشأتها الأولى في الاسمي الواعي بذاته، إنسان وعى من الحكمة ما يكفي ليشعر بضالة الحكمة السائدة في العالم. وهذه نظرة تستحيل في سهولة ويسر الى نوع من الترفع الزائف والإحساس بأن الجماهير قطيع ونحن الحكماء قلة ولنا السيادة أو يجب أن تكون لنا. نجد هذا ماثلا في كل سطر من كتابات نيتشه الذي يعد بحق أوضح مثال لهذه النزعة في الحركة الحديثة المعادية للعقل". (برينتون، 1984، ص245)

إن كل من شوبنهاور ونيتشه، قد اعتبرا في عصرهما بمثابة العبقرين المجهولين اللذين لم ينالا شهرة كبيرة، وهذا رغم أهمية إنتاجهما الفكري وتأثيره الكبير لاحقا. فشوبنهاور لم يعرف الشهرة إلا بعد هزيمة ثورة 1848. وهذا ما ينطبق على نيتشه الذي لم يُعترف بقيمة إنتاجه الفلسفي إلا في الطور الامبريالي. وكلاهما قد تم توجيه فكرهما لمكافحة التيارات التقدمية، رغم أن هذه التوجهات لم يراهن على فعاليتها في الصراع الإيديولوجي لا في المرحلة اللاحقة، عن طريق تيارات إيديولوجية أكثر رجعية. وكل هذا يفسر لنا أن كليهما كان مجهولا في البداية، ولم يعرفا الشهرة إلا لاحقا.

بالنسبة لفيلسوف ليس في وسعه أن يتبين القوى الفاعلة الحقيقية، لم يكن ممكنا القبض على هذه الإشارات المنبئة إلا في شكل يوتوبيات وأساطير. إن أهمية نيتشه الفلسفية آتية من كونه، رغم ذلك كله أن ينبت بعض الملامح ذات الديمومة. أجل، ساعدته في هذا مواهبه ككاتب جمل مقتضبة لاذعة وكمبدع أساطير (...) فالأساطير والحكم المقتضبة يمكن بالفعل، حسب المصالح المؤقتة للبورجوازية واتجاهات إيديولوجيها، أن تُجمع وان تؤوّل بأشكال مختلفة، وعند اللزوم، متناقضة. ولكن كونهم يستخدمون في كل مرة نيتشه جديدا إنما يبين أن ثمة تواصل تحت هذه التغيرات: تواصل العضلات الأساسية للامبريالية كما لحقبة

تؤلف كلا واحدا، من وجهة نظر المصالح الدائمة لطيفلي البورجوازية. (لوكاتش، 1982، ص101) وهذه محاولة هدف من خلالها إلى الانتقال من الإنسان العادي الضعيف إلى الإنسان الأعلى، أو بالتدقيق، الانتقال من البورجوازية إلى بورجوازية أقوى. وكل هذا ما هو إلا دليل قاطع على أن مهمة نيتشه الرئيسية قد تركّزت حول حدس حلول للمشاكل التي ستواجه البورجوازية خلال الفترة اللاحقة.

4. خاتمة:

وكل هذا يؤكد بأن الأطروحات النيتشوية الرجعية قد تزامنت مع فترة حاسمة، أصبحت فيها البورجوازية في حاجة إلى إيديولوجية تسمح لها بارتداء زيّها الجديد كطبقة رجعية. ولم يكن النقد اليميني الراديكالي الذي وجهه نيتشه للمجتمع الرأسمالي سوى محاولة هدف من خلالها إلى الانتقال من الإنسان العادي الضعيف إلى الإنسان الأعلى، أو بالتدقيق، الانتقال من البورجوازية إلى بورجوازية أقوى. هذه البورجوازية التي كانت سببا، من قبل، في خلق تاريخ ألماني مقلوب، تاريخ مزور، طغى فيه التعبير الذي يشير إلى العبقورية القومية باعتباره النصر الحقيقي للثورة، وسيبدأ منذ ذلك الوقت الحديث عن النفس الألمانية، وعن الألماني كتعبير عن التميّز والسمو عن كل ما هو غير ألماني. وستبدأ ألمانيا بالانتقال من سياسة القرية إلى السياسة العالمية. باختصار فإن الثورة الألمانية، الشديدة التعقيد، خلقت ما ندعوه الآن ميثولوجيا الامبريالية، وفي تطور مهم، فإن الفلسفة آنذاك هي التي عملت على إيجاد العناصر الأساسية لجعل هذه الميثولوجيا تمتلك مسوغها السياسي والاجتماعي والفكري. أما نيتشه فقد أتت فلسفته كصدى حقيقي لتلك الميثولوجيا، ولذلك نُظر إليه كنبى أكثر من فيلسوف، نبى الامبريالية ومُنظر ميثولوجياها.

وعلى العموم، فإن قيم العقل، النزعة الإنسانية، والاعتقاد بفكرة التقدّم، هي كلها بمثابة قيم ثابتة عند لوكاتش. أما الأطروحات التي تحاول الدفاع عن مواقف اللاعقلانيين،

فليس لها ما يبررها ، لأن أي تراجع عن القيم السالفة الذكر من شأنه أن يؤدي إلى انزلاقات فكرية خطيرة، بحيث ليس هناك موقف بريء في الفلسفة، كما يؤكد لوكاتش دائما في مختلف مؤلفاته إلى تناولت مسألة الاعقلانية ودورها في انبثاق الفاشية الهتلرية في ألمانيا. فالتيارات الفلسفية الاعقلانية، وبالأخص فلسفة نيتشه، كان دور بارز في تشكل شجرة نسب النازية. بدليل أنها ساهمت في زعزعة إيديولوجية الأمن، والتي تعتبر النواة الرئيسية التي ارتكزت عليها الهتلرية.

5. قائمة المراجع:

المؤلفات:

- 1- لوكاتش، جورج، 1982، تحطيم العقل، دار الطليعة، بيروت.
- 2- لوكاتش، جورج، بدون تاريخ، ماركسية أم وجودية؟، دار اليقظة العربية، دمشق.
- 3- برينتون، كرين، 1984، تشكيل العقل الحديث، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

4-Bahr, Erhard, 1972, *La pensée de G.Lukacs*, édition Edouard privat, Toulouse

5-Stanley, Aronowitz, 2001, *G.Lukacs reconsidered*, Continuum, New York-London.

المقالات:

- 1- هنا، غانم، 2007، مفهوم الحرب بين نيتشه وهيدجر، عالم الفكر، المجلد السادس والثلاثون، ص ص 51-35